مجلة التمكين الاجتماعي
المجلد 03 / العـدد 04/ ديسمبر 2021 / ص ص 86 - 96
Journal home page: https://sej-lagh.com
ASJP: https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/644

خصوصية المكان ودلالاته في رواية "البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج
- مقاربة سيميائية -

The specificity of the place and its connotations in the novel "The Andalusian house" Loasini al aaraj - semiotics approach

وردة حلاسي
Hallaci Warda
جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)، البريد الالكتروني: hallaci.warda@univ-guelma.dz

تاريخ الاستلام: 2021/08/12 تاريخ القبول: 2021/11/09 تاريخ النشر: 2021/12/15

ملخص:
تهدف هذه الدّراسة إلى البحث عن دلالة المكان وخصوصيته في رواية "البيت الأندلسي"، كنصر مستقل بذاته وفي ذاته، لأنّ معظم الدّراسات التي تناولت المكان في الرواية، كانت تكتفي بالإشارة إليه كإطار، أو في سياق حديثه عن الزمن، أو الفضاء الروائي. وبالتالي لم يحظ كغيره من عناصر الرواية بالاهتمام النقدي والبحثي رغم ما يطرحه من إشكالات معقدة، تتصل بماضي وحاضر ومستقبل الإنسان الجزائري، وهذا ما لمسناه في رواية "البيت الأندلسي"، التي تمثل متحفا ثريا لمختلف المظاهر المكانية؛ تتنوع فيها صور المكان وتتراكم فيها الدلالات وتتشعب، لتكشف عن سبل شتى وطرق متنوعة في التعامل مع هذا المكون، من خلال اشتغاله على مقومات الهوية والذات والتاريخ والوطن والقيم الروحية والأخلاقية.
كلمات مفتاحية: *المكان، الدلالة، الخصوصية، البيت الأندلسي، المقاربة السيميائية.*

ABSTRACT:
This study aims to find the significance and specificity of the place in the novel "The Andalusian House", as a stand-alone victory in itself, because most of the studies that dealt with the place in the novel merely referred to it as a framework, or in the context of its talk of time, or narrative space. Thus, like other elements of the novel, he did not receive critical and research attention despite the complex problems he poses, relating to the past, present and future of the Algerian man, this is what we have seen in the novel "The Andalusian House", which represents a rich museum of various spatial aspects.
Keywords: *Place; indication; privacy; Andalusian house; semiotic approach.*

- المؤلف المرسل: وردة حلاسي، البريد الالكتروني: hallaci.warda@univ-guelma.dz

1-مقدمة:

أصبح المكان يشكل إحدى المكونات الهامة في جو العمل الروائي في أغلب الدراسات النقدية الحديثة، ولهذا عدّ المكان من التقنيات السردية، التي تتمتع بإجراءات ودلالات وخصائص في نسيج أي عمل روائي، ومما لا شك فيه كذلك "أن المكان يمثل محورا أساسيا من المحاور التي تدور حولها نظرية الأدب، غير أنّ المكان في الآونة الأخيرة لم يعد مجرد خلفية تقع فيها الأحداث الدرامية، أو معادلا ثنائيا للشخصية الروائية فحسب، بل أصبح ينظر إليه على أنّه عنصر مشكل من عناصر العمل الفني، وأصبح تفاعل العناصر المكانية وتضادها يشكّلان بعدا جماليا من أبعاد النص الأدبي"(لوتمان يوري، 1988، ص.03).

ولما كان المكان عنصرا فاعلا من عناصر البناء الفني الأدبي بعامة والروائي بخاصة، بحكم أنّه أول شيء يواجهه المتلقي/القارئ في النص، وبؤرة مركزية تؤسس لأنساق التواصل القرائي في النص الأدبي، لخلق تحولات دلالية تعمق نسق المعنى بداخل النص الروائي، حيث يندمج القارئ مع مفرداته مكونا بذلك تصورات تخييلية للأحداث والشخصيات...، فهو كما تراه الدراسات الحديثة كسائر العناصر الفنية الأخرى، يقوم بدور فاعل في بناء وتركيب النص الروائي، وتأثيثه وبلورته فنيا وتشكيله جماليا، لأنّه العنصر الذي تنطلق منه الأحداث وفيه تسير الشخصيات وتبث من خلاله رؤاها، كما أنّ المكان قد يشحن بدلالات يكتسبها من خلال علاقته بها. وهو في رواية "البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج يساهم في تشكيل الأبعاد الدلالية للرواية، من خلال اشتغال مكوناته على مقومات الهوية والذات والتاريخ والوطن والقيم الروحية والأخلاقية، ونظرا لهذه الأهمية التي يحتلها المكان في هذه الرواية، يطرح البحث الإشكالية الآتية: **كيف تجلت خصوصية المكان ودلالاته داخل رواية "البيت الأندلسي" لواسيني الأعرج؟**

وقد انبثق عن هذه الإشكالية التساؤلات الآتية:

- ما هو مفهوم المكان وكيف هي تجلياته داخل الممارسة الأدبية والنقدية؟
- ما علاقة المكان في الرواية بفكرة الانتماء للهوية والتعبير عن الخصوصية؟
- ما دور الوعي المكاني للشخصية في إنتاج وتجسيد دلالات المكان، وخاصة المكان التاريخي، وهل أثرت الظروف الخارجية على تمظهرات المكان في الرواية؟

وللإجابة على هذه الأسئلة اعتمدنا منهجا علاماتيا، باعتبار المكان داخل النص الأدبي هو علامة، مع اطلاعات نظرية في قالب تحليلي يعتمد على المقاربة السيميائية.

2- مفهوم المكان وتجلياته في الممارسة الأدبية والنقدية:

شغل موضوع المكان في الآونة الأخيرة عددا من الدراسات الأدبية، وفي مقدمتها الرواية والقصة ثم الشعر والمسرحية، وشكل ظاهرة جمالية في الأدب لصلته الوثيقة بالإنسان، ذلك أنّ صلة الإنسان بالمكان صلة ذات أبعاد عميقة، فالذات الإنسانية لا تكتسب أهميتها إلاّ من خلال تفاعلها مع المكان الموجودة فيه، والذي يمارس سلطته على المشاعر والأحاسيس الإنسانية، اهتمت به النظريات القديمة والحديثة باعتبار الظاهرة المكانية مكونًا رئيسًا من مكونات العمل الأدبي والفنّي،لا يمكن الاستغناء عنها؛ لأنّه لا يمكن تصور حدث ما خارج حدود المكان والزمان(وردة حلاسي، 2013، ص.02). ونظرا لكثرة الخلاف في تحديد مصطلح المكان في الممارسة الأدبية والنقدية، كان من الواجب تقديم دلالة عامة لهذا المفهوم.

تشير الدلالة اللغوية للمكان في المعاجم العربية إلى أنّ "المكان – الموضع- والجمع أمكنة"(ابن منظور، 1990، ص.414)، و"المكان الموضع الحاوي للشيء جمع أمكنة، وجمع الجمع أماكن" (أحمد رضا، 1960، ص.344).

وفي القران الكريم نجده قد ورد في مواضع كثيرة منها: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ (سورة مريم الآية (16))، وقوله: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ (سورة مريم الآية (22))، وقوله: ﴿حُنَفَاء لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (سورة الحج الآية (31))، وقوله: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ (سورة الفرقان الآية (12)).

فالمكان حسب الدلالة اللغوية هو موضع لكينونة الشيء فيه.

اختلفت الآراء حول مفهوم المكان اختلافا بيناً وواضحا، من الناحية الاصطلاحية، فهناك من ينظر إليه على أنّه "وسط غير محدود يشمل على الأشياء"(إبراهيم مدكور، 1983، ص.191)، وهو عند باشلار"ما عيش فيه لا بشكل وضعي، بل بكل ما للخيال من تحيّز، وهو بشكل خاص، في الغالب مركز اجتذاب دائم"(غاستون بشلار،1980، ص.179). ويميّز مرتاض بين المكان الحقيقي، والمكان الأدبي، بقوله: "المكان الأدبي امتداد مستمر مفتوح على جميع المتجهات، وفي كل الآفاق"(عبد الملك مرتاض، 1998، ص. 57).

ظل مصطلح المكان محتفظا بدلالته اللغوية، حتى بعد انتقاله إلى حقل الدراسات الأدبية والنقدية، ليدل على الموضع والحيّز الجغرافي، الذي تتواجد فيه الشخصيات وتتحرك. وتعدّ دراسة حسين مجيد العبيدي "نظرية المكان في فلسفة ابن سينا" (1987)، هي الأولى من نوعها في بحث المنظور الفلسفي للمكان، بينما ظهرت العناية النقدية والأدبية الأولى في المكان في دراسة عبد الوهاب زغدان "المكان في رسالة الغفران: أشكاله ووظائفه" (1985)، وهي توصيف للمكان يتصل بالخصوصيات الثقافية. كذلك كان بحث غالب هلسا (الأردن) "المكان في الرواية العربية" الأول في بابه إثارة لأسئلة جماليات المكان بعامة، وعالج ياسين النصير (العراق) "إشكالية المكان في النص الأدبي" (بغداد 1986)، وأثار عبد المالك مرتاض فكرة الحيز أو الفضاء في نقده التطبيقي لأول مرة بمثل هذا العمق والشمولية، ولاسيما في كتابه "ألف ليلة وليلة ": تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد "(الجزائر 1993)، واستفاد في تحليله من انجازات علم السرد عند جينيت على وجه الخصوص، وبدأ تحليله بأن حكايات ألف ليلة وليلة أزخر الآثار الإنسانية بالتنوع في الحيز، والتنوع في الفضاء والغرابة في المكان، ويلاحظ التقارب بين ألفاظ "الحيز" و"الفضاء" و"المكان" في تطبيقه النقدي.

درس مرتاض الحيز من عدة مستويات هي: الحيز الجغرافي والحيز الشبيه بالجغرافي والحيز المائي، والحيز المتحرك والحيز التائه والحيز الخرافي والحيز العجيب الغريب، على أنّه لم يقصر الحيز على أطره المتعددة والمتنوعة، بل نظر إليه ضمن المنظور السردي برمته، بوصفه حركة بالنسبة لأهم الشخصيات المركزية في هذه الحكاية. وبهذا كان مرتاض أمينا لمنهجه المعلن الذي يأخذ ببعض معطيات النقد: السيميائي والتفكيكي، وقد مارسه فيما بعد في كتب عديدة مثل "النص الأدبي: من أين؟ إلى أين؟ "(الجزائر1983)، و"تحليل الخطاب السردي: معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق "(الجزائر1985)، ومقامات السيوطي (دمشق 1996)، و" في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد "(الكويت)، و"الكتابة من موقع العدم: مساءلات حول نظرية الكتابة "(الرياض 1999) ...

وعني غسان إسماعيل عبد الخالق (الأردن)، بمشكل المكان في الرواية متلازما مع تقنية السرد، وتيار الوعي في روايات جمال ناجي أنموذجا في كتابه" الزمان، المكان، النص: اتجاهات الرواية العربية المعاصرة في الأردن 1980-1990"(بيروت 1993)، غير أنّ تحليله للروايات المدروسة لا يولي مشكل المكان أهمية خاصة، فقد غلب على تحليل عبد الخالق عنايته بالسرد وبمنظوره، أما المكان وجمالياته فلا يتعدى الإشارات العامة، شأن العناصر السردية الأخرى. ودرس شاكر النابلسي (الأردن)، وهو معروف بمحاولاته المتعددة لتطبيق المناهج الحديثة في نقده التطبيقي، من المنهج الاتباعي في دراسته لقصص تشيخوف"

النهايات المفتوحة"، إلى تلوينات المناهج المختلفة في دراساته التالية الكثيرة، في كتابه "مدار الصحراء: دراسة في أدب عبد الرحمان منيف"(بيروت 1993)، جماليات المكان وتشكيلات الزمان من خلال معالجته لعلاقة المكان بالزمان وبطولة المكان، وجمالياته ووظيفته، على أنّه جاوز في تطبيقه النقدي إشكالية المصطلح مؤثرا الاعتماد على التمازج بين حدود فهمه التقليدية والمستحدثة.

واستخدم حميد لحميداني (المغرب) مصطلح "الفضاء"، ونظّر له مستندا إلى انجازات علم السرد إياه في كتابه "بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي" (بيروت –الدار البيضاء1993)، وقد سبق له أن عالجه في بحثه "فضاء الحكي بين النظرية والتطبيق" (المنشور في مجلة "دراسات أدبية ولسانية"- عدد 3-1986)، وذكر الآراء المختلفة المتصلة بالمصطلح. وعالج صلاح صالح(سوريا) باتساع "قضايا المكان الروائي في العربي المعاصر"(القاهرة 1997)، ونشر قبل عام من تاريخه القسم الثاني التطبيقي من أطروحته السابقة بعنوان "الرواية العربية والصحراء"(دمشق 1996) ضمن متواتر القول في المناهج النقدية الحديثة حول المكان في الرواية، وفعل ذلك منصور نعمان نجم الدليمي (العراق) في مجال المسرح، في كتابه "المكان في النص المسرحي"(إربد1999)، وأشارت دراسة صلاح صالح إلى انتشار جماليات المكان في النقد الأدبي العربي الحديث، ضمن عمليات ترسيخ منهجية النقد الجمالي المعرفي، على الرغم من عدم إطلاعه الكافي على وفرة الدراسات المتعلقة بالمكان الروائي، حين حكم على ندرتها في كتابه (ص12)، وكانت دراسته في كتابيه المشار إليهما الأشمل عن جماليات المكان في الرواية العربية. حيث عاين الانتقال من المكان إلى المكان الروائي ودرس أبعاد المكان الفيزيائي والرياضي – الهندسي، والجغرافي، والزمني التاريخي والذاتي – النفسي، والواقعي – الموضوعي، والفلسفي- الذهني، والتقني- الجمالي... (عبد الله أبو هيف، 2005، ص. 126-131).

يتضح من خلال هذه الدراسات والأعمال الأدبية والنقدية، أهمية المكان كعنصر فاعل من عناصر البناء الفني الأدبي بعامة والروائي بخاصة، يقوم بدور فاعل في بناء وتركيب النص الروائي، وتأثيثه وبلورته فنيا وتشكيله جماليا، لأنّه العنصر الذي تنطلق منه الأحداث وفيه تسير الشخصيات وتبث من خلاله رؤاها، كما أنّ المكان قد يشحن بدلالات يكتسبها من خلال علاقته بها (وردة حلاسي، 2013، ص.03).

3- ملخص الرواية:

تحكي رواية "البيت الأندلسي" قصة بيت شيّد بطراز قديم، أنشأه سيدي أحمد بن خليل الروخو في القرن السادس عشر، وهو من أحد الموريسكيين الفارين من الأندلس، وفاءا لحبيبته (سلطانة بالاثيوس)، تريد السلطات تهديمه لاستغلال مساحته الأرضية لبناء برج عظيم "برج الأندلس"، كما يرد في الرواية على لسان مراد باسطا "في الاجتماع الفصل، في القاعة البيضوية بالبلدية، بشروني بأنّهم غيّروا اسم البرج، من البرج الأعظم إلى برج الأندلس حفاظا على عطر الماضي، والمكان الذي نبت فيه البرج" (واسيني الأعرج، 2010، ص.28).

لكن مراد باسطا وهو ساكن البيت والمتبقي من السلالة المنقرضة، يرفض فكرة التهديم؛ لأنّها في النهاية محو للذاكرة الجمعية، ومن هذه النقطة يعيش القارئ من خلال نضال مراد باسطا تاريخ نشوء البيت الأندلسي، منذ أن بناه جاليليو (سيدي أحمد بن خليل)، إلى لحظة استيلاء الأتراك عليه بعد اغتصاب صاحبته من طرف القرصان دالي مامي، ثم عهد الاحتلال الفرنسي، الذي تحول معه البيت إلى أول دار بلدية في الجزائر المستعمرة، قبل أن يأتي جونار حاكم الجزائر العام فيحوله إلى دار للموسيقى، وبعد الاستقلال يتكالب على البيت الذين تسميهم الرواية الورثاء الجدد، لكن البيت في آخر المطاف يعود إلى مراد باسطا، الشخصية التي ورثت البيت، وما يرتبط به من ذلك المخطوطة التي تعود إلى جدّه غاليليو، أو سيدي أحمد بن خليل

الروخو، والتي كانت ترسم تاريخ عائلة من الموريسكيين، الذين فرّوا بهويتهم وثقافتهم من الأندلس إلى الجزائر قبل أكثر من أربعة قرون، والتي كتبوا أجزاء كبيرة منها بلغة الخيميادو، لأنّ لغة الخيميادو كانت سرّهم وجسرهم نحو هويتهم المقهورة وتاريخهم، فكان مراد باسطا آخر وصي على المخطوطة وحاميها من الاندثار والزوال، الذي يتهددها من كل جانب. وعبر كل هذه الأحداث كانت ماسيكا هي المنظم الأساسي للعملية السردية، وعن طريقها تعرفنا على قصة مراد باسطا ومخطوطته. ماسيكا التي تبحث عن هويتها الضائعة التي لا تعرف منها سوى قصص أمّها الممزقة؛ لذا حاولت دائما الحفاظ عليها تقول:" أنا ماسيكا وإذا شئتم: سيكا بنت السبنيولية كما سماني أصدقائي في المدرسة لا لأنّ أمي اسبانية، فهي مثلي، نبتة هذه الأرض البحرية، ولكن لأنّ أصولها موريسكية مثل الآلاف من سكان الجزائر. لم أقم أبدا في البيت الأندلسي ولو يوما واحدا، ولست وريثة لا شرعية، ولا غير شرعية لممتلكاته، ربّما كان إحساس أمي الخفي، وجاذبية أصولها البعيدة هو الذي قادني نحو هذا البيت، نحو هذا الرجل الطيب، عمي مراد باسطا، أو ربّما... لأنّي كنت فقط الأقدر على قراءة الرموز الخفية التي كانت تتذابح في عينيه، وفهمته أكثر ممّا يفهمه أي شخص آخ، بما في ذلك أعز أحفاده... قد شرح لنا قصة البيت الأندلسي، وأظهر لنا المخطوطة ذات الرائحة الغريبة التي ظلّت عالقة بأنفي، لأنّي شممت فيها أيضا رائحة أمي، ولا أدري ما هي القوة الخارقة التي دفعت بي يوم الحريق المهوّل الذي أكل البيت الأندلسي... لأجد نفسي في عمق دار الخدم التي سكنها دائما عمي مراد باسطا، وسحب المخطوطة من مكانها الذي كنت أعرفه جيّدا"(واسيني الأعرج، 2010، ص.07- 08).

4- دلالة الأمكنة وخصوصيتها في الرواية:

بعد هذا الملخص الموجز لأحداث الرواية، نرحل للغوص في أعماقها واستجلاء أهم الأماكن الموظفة فيها، ونظرا لكثرتها سنحاول إدراجها في جدول ثم نذهب لنورد أبعاد ودلالات الأماكن الأكثر أهمية داخل الرواية، والتي لعبت دورا بنائيا في أحداثها.

جدول 1. أنواع الأماكن في رواية "البيت الأندلسي".

الرقم	المكان	الصفحة
01	**المدرسة:** - مدرسة الاستقلال - مدرسة الثعالبية	06 129 113
02	البيت الأندلسي	06
03	الجزائر	06
04	الحديقة	07
05	**الدار** - دار الخدم - دار الموسيقى - دار الفن الأندلسي	07 07 213 434
06	البحر	07
07	المدينة	08
08	**المقبرة** - مقبرة ميرامار - مقبرة اليهود - مقبرة الأندلسيون - مقبرة خليج الغرباء	09 09 340 386 399

09	**الجبال:** - جبال البشرات - جبل كوكو - جبال مارجاجو	10 81 127 322
10	**الموانئ:** – الميناء القديم – ميناء المارية – ميناء وهران – ميناء ليبانت – ميناء مسينا – ميناء نابولي – ميناء المحروسة – ميناء الجزائر الجديد – ميناء كورونا – الموانئ الاسبانية	10 77 151 272 273 280 280 302 309 317 318
11	البلدية	10
12	المتحف	13
13	المكتبة الوطنية	13
14	**الشوارع والأحياء:** – حي البيازين – الحي اليهودي – شارع البحر – حي الكبريت – الاحياء القديمة – شارع الحرية – شارع لاهوشيت – شوارع مدريد	72 73 117 136 231 235 346 365
15	محاكم التفتيش	79
16	الحمامات	79
17	غرناطة	78
18	اسبانيا	83
19	**الأسواق:** – سوق الجمعة – سوق أراضي البناء – سوق طليطلة وبلنسية – سوق السيارات – سوق المخدرات وباب الواد والقصبة – سوق الغبرة والحجاب والنساء	105 128 260 339 372 377 378

	- الأسواق المتوحشة - سوق افغنستان - سوق الخضر والوسكي	379 380
20	المعبر	128
21	السجن	283
22	برج الأندلس	271
23	القسطنطينية	296

المصدر: (من إعداد الباحثة).

نتوقف من خلال هذا الجدول، عند دراسة دلالة بعض الأمكنة، التي كان لها بعد تأويلي كبير ساهم في حركة الرواية، ومن بينها:

4-1- البيت الأندلسي:

إنّ الحديث عن البيت بصفة عامة، هو "البيت الذي ولدنا فيه محفورا بشكل مادي في داخلنا فهو أكثر من مجرد تجسيد للمأوى، هو تجسيد للأحلام كذلك"(غاستون بشلار، 1980، ص. 43- 44). فالبيت عبارة عن حيّز هام في حياة الإنسان في استقراره، وهو مصدر للراحة والأمن والطمأنينة، التي يبحث عنها كل إنسان في استقرار حواسه، وهذه الحواس التي تعتبر من إحدى المكونات المشكلة لهذه الشخصية التي تؤثر وتتأثر بالبيت. وإذا وصفنا البيت الذي تحدث عنه واسيني الأعرج في روايته، هو بيت أندلسي قديم عاش فيه العشاق والقتلة، الملائكة والشياطين، النبلاء والسفلة، الشهداء والخونة، وهو يتكون من"... قبل أن يعمّ كل الغرف التي يتكون منها البيت الأندلسي: الصالة الكبرى بكل ملحقاتها التي كانت تنفتح على الحديقة قبل أن يغطيها حائط سميك، دار الضيوف المكونة من صالة واسعة، وأربعة بيوت صغيرة مجهزة بكل المنتفعات الصحية، المطبخ الواسع الذي ينفتح على الحديقة بمخادعه المتعددة، التي كثيرا ما كانت تخصص لخاصة الضيوف، الحمامات التي تحتوي على مغاطس رومانية جيء بها من تيبازة إلى هذا المكان في القرن التاسع عشر، عندما تمّ تحويل الدار إلى إقامة لنابليون الثالث، بيت الراحة الملازم للمطبخ الذي كان يرتاح فيه الطباخون، المنظفون وعمال الحديقة ثم دار الخدم وهي المكان الذي كان ينام فيه الساهر على تسيير الدار وكبير الخدم "(واسيني الأعرج، 2010، ص. 54).

يعد البيت الأندلسي جوهر الرواية وبطلها الأساسي، يحمل بعدا تاريخيا هاما ودلالات تبرز قيمته وخصوصيته داخل الرواية. فهو المكان الذي تجري فيه أحداث الرواية؛ إذ يمثل الموروث الثقافي وإشكالية التراث المعماري والذاكرة في أرقى تجلياتها الفكرية والروحية والفنية والجمالية صعب الانسلاخ منه مثله مثل الأب والأم والحبيبة، إلّا أنّ هذا المكان أرادت السلطات تهديمه واستغلال مساحته الأرضية، لبناء برج عظيم بمائة طابق أطلق عليه **" برج الأندلس "**.

لكن ساكن هذا البيت مراد باسطا يرفض فكرة التهديم، لأنّها محو لذكرياته في هذا البيت، حيث يقول وهو يتحدث مع أمين عام البلدية كريمو: "أنت لا تعرف ماذا تعنيه تلك الدار التي تسرق كل يوم قليلا مني في كل زاوية منها أصوات ونداءات وحشرجات وتقطع اللذة وتنفس الرعب، وصرخات الاستغاثة لأناس الكثير منهم كانوا مني، هل تعرف ماذا يعني ذلك؟ أعرف كل ناسها وساكنيها، كل الذين عبروا أبوابها أمواتا وأحياء أو هاربين أشعر بهم فيّ هل تفهمني؟ لست مسكونا ولكني كلّما مشيت في حديقة الدار رأيتهم واحد واحد، أشرب معهم قهوة الصباح وأسهر معهم كل ليلة حتى الفجر، قد تقول عنّي هذا الرجل مجنون؟ معك حق، البيت يا ابني ليس قبرا صامتا وليس مساحة خالية من الأحاسيس ولكنه حياة مستمرة"(واسيني الأعرج، 2010، ص.111).

هذا "البيت الأندلسي" باعتباره المكان الرئيسي في الرواية مرّ بعدة مراحل هي:

4-1-1- مرحلة التشييد: ففي القرن السادس عشر، قام غاليليو الرخو بتشييد البيت الأندلسي وفاءا لحبيبته سلطانة بلاثيوس.

4-1-2- مرحلة الاستيلاء على البيت: وهي المرحلة التي استولى فيها القراصنة الأتراك على البيت، بعد عملية اغتصاب قاسية ضد صاحبته.

4-1-3- مرحلة الاحتلال الفرنسي: وهي المرحلة التي تحول فيها البيت إلى أول دار للبلدية في الجزائر المستعمرة.

4-1-4- مرحلة الاستقلال: تحول البيت إلى كابريه ثم إلى مركز لعقد صفقات تهريب المخدرات والأسلحة.

وبعد كل هذه المراحل، يقترح مراد باسطا على السلطات تحويل البيت إلى دار الموسيقى، كما كان في زمن ما.

إنّ هذه التقسيمات التي مرّ بها "البيت الأندلسي"، أعطت له أبعادا ودلالات كثيرة، بحيث أصبح صورة عاكسة لواقع الجزائر منذ بداية الاحتلال حتى عهد الاستقلال، حيث مرّت بالعديد من الإنشطارات ومحاولات لمحو ذاكرتها الإنسانية والتاريخية والثقافية والعمرانية وحتى الاجتماعية...

ويمكن أن نقسم الأمكنة داخل الرواية إلى أمكنة مغلقة وأخرى مفتوحة، فلكل منها أبعادها ودلالتها التي تجسد خصوصيتها.

5- الأماكن المغلقة:

تمنح الأماكن المغلقة الروائي بشكل عام إمكانية أكبر للعناية بعناصر الفضاء، ويمكن رصد عدد كبير من الأماكن المغلقة المألوفة له وغير المألوفة في رواية البيت الأندلسي. "والمكان المغلق هو المكان المحصور من خلال خلجات النفس وتجلياتها وما يحيط بها من أحداث ووقائع"(شاكر النابلسي، 1994، ص. 16). وتكون كل هذه الأحداث طليقة ومغلقة وفي مكان ضيّق ومغلق وأكثر من هذا فإنّ " الأمكنة تنتقل خارج حدودها والمكان هو فضاء مغلق رغم أنّه مفتوح أو هو فضاء مفتوح رغم أنّه مغلق"(عز الدين مناصرة، 1990، ص. 26). ويمكن حصر الأماكن المغلقة ودلالتها في الرواية فيما يلي:

5-1- البيت الأندلسي:

هو محور الرواية وأساسها؛ إذ كل أحداثها تدور فيه.

5-2- السجن:

هو مكان مغلق يتميز بسلب الحرية، ويدل على القيد والاعتقال، فهو مصدر للحزن والاكتئاب، إنّه دليل واضح على التعسف وانتهاك الحقوق الإنسانية. و"السجن في معناه العام قيد وخضوع وذل، وهو فقدان للحرية وتعطيل للحركة وإقامة جبرية"(عمر أحمد بوقرورة، 2002، ص. 32). وصفه واسيني الأعرج في روايته، بأنّه مكان مظلم وعفن ومرعب ومفزع حين قال: "وملأت منهم سجونها المظلمة والعفنة، وتفننت في أساليب تعذيبهم وإرهاقهم جسديا ومعنويا، وتركت في مأساتهم أعمق الأثر، كان مجرد ذكر اسم هذا الديوان يثير الرعب والفزع من الأساليب الوحشية التي كانت تتبعها محاكم التفتيش في تعذيب المسلمين : الجلد علنا، الكيّ بالنار، حرق الأقدام بالفحم المشتعل، ربط أطراف المتهم في إطار مثلث الشكل، التجويع التدريجي، التعذيب بالأسياخ الملتهبة، وحرق البطن والعجز، سحق العظام بآلات ضاغطة صنعت خصيصا لتمزيق الأرجل، فسخ الفك، وغيرها من الوسائل الهمجية المثيرة"(واسيني الأعرج، 2010، ص. 80).

5-3- المقبرة:

إنّ المقابر هي مدافن الأموات وهي ديار الموتى ومنازلهم، فإكرام هذه المنازل واحترامها من تمام محاسن الشريعة الإسلامية وهي مكان مقدس. ارتبط اسمها في الرواية بمقبرة "ميرامار" التي دشنتها "حنا سلطانة" ثم "غاليليو الروخو" وهي المكان الذي أحبه مراد باسطا وتمسك به وأراد أن يدفن فيه بعد موته حين قال: "سيكا... أريد أن أدفن هنا في مقبرة ميرامار التي دشنتها "حنا سلطانة" ثم جدّي الأول " غاليليو الروخو" قبل أن يملأها الذين جاؤوا من بعده، أحب هذا المكان، ليس لأنّ به كل الناس الذين أحببتهم ولكن، لأنّها المقبرة الوحيدة في الدنيا التي انمحت فيها كل الأديان استقبلت المسيحي واليهودي، والمسلم و البوذي وحتى الملحد"(واسيني الأعرج، 2010، ص. 09).

5-4- المدرسة:

تعد المدرسة من الأماكن المغلقة، وهي الأم الثانية للطفل بعد الأم الحقيقية في البيت وهي المكان الذي يكتسب فيه الطفل المزيد من التربية والعلم. كما أنّها المكان الذي يتعرّف فيه الطفل على تاريخه وتراثه، ومن الأماكن التي وظفها الكاتب في هذه الرواية مدرسة الاستقلال، وهي المدرسة التي أراد تلاميذها زيارة البيت الأندلسي للتعرف عليه حيث يقول مراد باسطا: "بدأت أحضر لاستقبال تلاميذ مدرسة الاستقلال الذين كانوا يستعدون لزيارة البيت الأندلسي مع معلمتهم في إطار برنامج وزارة التربية أيام التراث التي قررت الدولة بموجبها فتح المتاحف والبيوت القديمة على التلاميذ لتعريفهم بتاريخهم وتراثهم"(واسيني الأعرج، 2010، ص. 129).

كان الهدف من هذه الزيارة، هو التعريف بالتاريخ كما تقول صونيا معلمة مدرسة الاستقلال، وهي تتحدث مع مراد باسطا:" أنا أريد أن أبيّن للتلاميذ أنّ التاريخ ليس بعيدا عنهم في أكلهم وبيوتهم وألبسة أهاليهم، لقد علّموهم تاريخا مزيّفا وبعيدا عنهم ولهذا كرهوا كل شيء"(واسيني الأعرج، 2010، ص. 129).

6- الأماكن المفتوحة:

هي تلك الأماكن التي لا يحدها جدار ولا سياج ولا أي شيء، فهي منفتحة على الفضاء الخارجي، وعادة ما يكون الفضاء المفتوح يوحي بالحرية والطلاقة في التصرفات. وتشير الرواية إلى مجموعة من الأمكنة المفتوحة تشكل مكانا للانتقال نذكر منها:

6-1- الجزائر:

لا شك أنّ الدارس لهذه الرواية يدرك حقيقة ما يريده الكاتب واسني الأعرج، والذي أشار في هذه الرواية إلى أن الجزائر ومنذ القدم تعرضت إلى هجمات في مختلف العصور، وكانت محل أطماع العديد من الدول الغربية منذ مئات السنين، بل آلاف السنين، كما تعرضت في الآونة الأخيرة إلى هزات أو نكبات ما تسمى بالعشرية السوداء، وما زالت لحد الساعة هي عرضة للنزاعات، ومحل أطماع، إلّا أنّها لم تتصالح مع ذاتها، و لم تقدم حلولا للخروج من هذه النكبات التي تمر بها في عديد من الأحيان، وبقت في كثير من الأحيان بعيدة عن الواقعية، وذلك نتيجة التعنت والإصرار على تناسي الماضي والقفز عليه، بل كان يتحتم عليها استخلاص العبرة ومعالجة مشاكلها بالوقوف على الأخطاء السابقة من غير المرور عليها مرور الكرام كما يقال.

6-2-البحر:

كان حضور البحر قويا ولافتا للانتباه، بحيث احتل مكانة متميزة في الرواية، إذ تواتر أكثر من خمسين مرة، فالبحر يحمل دلالات متنوعة، فهو رمز للطهارة والنقاء والصفاء والعمق، كما أنّه يعبر عن رونق للجمال، إذ أنّ زرقته تطرد الألم وتبعث في النفس الراحة والطمأنينة فالبحر يغيّر نفسية الإنسان من الأسوأ إلى الأحسن، فهو المكان الذي لجأت إليه سيكا مع مراد باسطا للتنزه إذ يقول:" عندما يروننا نمشي على حافة البحر ليس بعيدا عن خليج الغرباء، ويتغامزون فيما بينهم كنت أشعر بسعادة

غريبة لأن يربط مصيري، بحياة هذا الرجل الطيّب وكان هو يجد لذّة كبيرة في السخرية: شايفة يا سيكا؟ يظنوننا عاشقين هائمين على حافة البحر"(واسيني الأعرج، 2010، ص. 08).

كذلك ارتبط البحر في التراث بالجهاد والفتح والصراعات الإنسانية، إضافة إلى أنّه يحمل معنى الخوف إذ تحدث " واسيني الأعرج" في الرواية عن أهوال رحلة "مايوركا" ونجاة "الروخو" منها وخروج الرايس حميد كروغلي وبحارته سالمين من العواصف البحرية حين يقول "... بل أنّي كنت أخافها لأنّ الموت فيها ليس من السفن المقابلة ولكن من أعالي البحار نفسها"(واسيني الأعرج، 2010، ص. 185).

3-6- الشوارع والأحياء:

هي الأماكن العمومية؛ أي الأماكن التي لا تنضوي تحت ملكية فردية، وتعتبر أهم الأماكن المفتوحة التي تتم فيها الحركة من مكان إلى آخر باعتبارها " أماكن انتقال ومرور نموذجية التي ستشهد حركة الشخصيات وتشكل مسرحا لغدوها ورواحها عندما تغادر أمكان إقامتها وعملها"(حسن بحراوي، 1990، ص. 79). وقد كان للشوارع والأحياء حضورا مميزا في الرواية باعتبارها أهم الأجزاء المكونة للمدينة؛ إذ لم يظهر في الرواية شارعا ولا حيّا واحدا، كما أنّ الكاتب أشار إلى عدّة تسميات منها: حي البيازين والحي اليهودي وحي الكبريت والأحياء القديمة وشارع البحر وشارع الحرية وشارع لاهوشيت وشوارع مدريد... ففي حي البيازين مثلا جرت عدّة أحداث من بينها اختطاف واغتصاب أخت غاليليو الروخو من طرف أحد العساكر حيث يقول: "كنت أدافع عن أختي التي اغتصبت في حي البيازين أمام الجميع"(واسيني الأعرج، 2010، ص.72). أمّا الأحياء القديمة فهي أحياء أراد الوالي تهديمها وترحيل الناس حيث تكون ظروف العيش أفضل، وتشييد أبراج مثل الأبراج الموجودة في دبي والرياض وهونغ كونغ وأندونيسيا.

وما يمكن ملاحظته من خلال دراسة عنصر المكان بنوعيه المفتوح والمغلق؛ أنّه رغم تميّزه بالحركة والحيوية، فقد تميّز بالقلق والاضطراب أيضا.

7- الخاتمة:

إنّ رواية "البيت الأندلسي" هي رواية أراد الكاتب من خلالها أن يعيد الاعتبار إلى ثقافة منسية في السجل التاريخي الوطني والإنساني، إنّها الثقافة الأندلسية في الجزائر في جانبها العمراني الأكثر تمظهرا في المدينة القديمة أو القصبة السفلى؛ لذا نراه اشتغل في روايته "البيت الأندلسي" على الموروث العمراني الذي اختصره في استعارة حكائية لبيت أندلسي قديم وحقيقي في بعض ملامحه، عبرت من خلاله عائلات وأمم وأجيال متعاقبة. ولأجل ذلك ركز على مسارين ليؤصل البعد الشمولي لنصه، بحيث حوّله إلى أيقونة ترى من كل زواياها مسارات الحاضر بأناسه وصراعاتها الأكثر تدميرا والأكثر عمقا، ومن مشكلات الطبقات الجديدة في المجتمع إلى مشكلات الهوية ومعضلات الذاكرة في جانبها الأكثر تعقيدا: التاريخ والعمران والهندسة التي استوحاها من أمكنة حقيقية في الجزائر مثل: قصر خداوج العمياء في عمق القصبة. فكان "البيت الأندلسي" هو الوجه الثاني للجزائر، للخيبات والانكسارات، للفرقة والضياع، للتعذيب والتنكيل، هو التناحر باسم الدين، هو ضريبة حضارة القرون الثمانية.

فـ"البيت الأندلسي" هو الوطن العربي ممثلا في الجزائر، هو جشع الطبقات الصاعدة التي لا تتوانى عن إزهاق الأرواح وتخريب البلاد، هو التجارة باسم الدين وتطبيق الشريعة باسم المصالح. فالمخطوطة ليست سوى مجرد خزان للمعلومات، ولكنها أكثر من ذلك كله، إنّها التاريخ الشعبي الذي لم يعط له حق التعبير الحر، وجهة النظر الذاتية في تاريخ لم يجد إلّا قناة تعبيرية واحدة ووحيدة هي القناة الرسمية. وبهذا نجد واسيني الأعرج تعامل مع التاريخ بحرية كبيرة في هذه الرواية.

8- قائمة المصادروالمراجع:

1. أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، (1990)، لسان العرب، مج13، ط1، دار صادر، لبنان.
2. إبراهيم مدكور، (1983)، المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، القاهرة.
3. أحمد رضا، (1960)، معجم متن اللغة، مج5، دار مكتبة الحياة، بيروت.
4. حسن بحراوي، (1990)، بنية الشكل الروائي والفضاء، الزمن، الشخصية، ط1، المركز الثقافي، العربي، لبنان.
5. جاستون باشلار، (1980)، جماليات المكان، ترجمة غالب هلسا، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.
6. شاكر النابلسي، (1994)، جماليات المكان في الرواية العربية، ط1، المؤسسات الجامعية.
7. عبد الله أبو هيف، (2005)، جماليات المكان في النقد الأدبي العربي المعاصر، مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية، سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية، المجلد 27، العدد1، الصفحات 121- 138.
8. عز الدين مناصرة، (1990)، شهادة في شعرية الأمكنة، ط1، الجاحظية للتبيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
9. عمر أحمد بوقرورة، (2002)، دراسات في الشعر الجزائري المعاصر، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر.
10. واسيني الأعرج، (2010)، البيت الأندلسي، ط1، منشورات الجمل، بيروت، بغداد.
11. وردة حلاسي، (2013)، أبعاد المكان ودلالاته في مسرحية "أم الشهداء" لعزّ الدّين جلاوجي - مقاربة سيميائية، الملتقى الدولي الرابع للأدب والمنهج، جامعة قالمة، يومي 25- 26 أكتوبر، الجزائر.
12. يوري لوتمان، (1988)، فاتحة الكتاب، جماليات المكان، ط2، عيون المقالات، الدار البيضاء، دار قرطبة، المغرب.